

من مشاهدات سائر في نيويورك

الأبيض والأسود ... وقصص أخرى !

تنتشر في نيويورك الأحياء الخاصة بالأجناس المتباينة ؛ فهذا حيّ الإيطاليين ، وهذا حيّ الإيرلنديين ، وهذا حيّ الإسبان ، وهذا حيّ الروس ، وتلك أحياء آخر لأجناس آخر . . .

وإن تلك الأحياء لتبتلعها المدينة وتؤمركها ، فتضاعل على مر الزمن ، كأجناس هذه الأحياء تربطهم جامعة أمريكية واحدة وإن تفرقت بهم المناسبات والأصول . . .

تتحلل أحياء الأجناس في بوتقة المدينة ، كما تتحلل الأجناس أنفسها في بوتقة الأمة الأمريكية . . .

ولكن شمة حيّ لا أدري كيف يتحلل في بوتقة نيويورك وكيف يتحلل جنسه في بوتقة الأمة ، ومتى يتم هذا وذاك ؟ إنه كاللحجر الصلد لا يلين للأحماس المذيبة ، ولا ينصهر في أتون النار المتقدة . . .

ذلك هو حيّ الزوج ، أو مدينة هارلم ، كما يسمونها هناك . . . إنه أبعد أحياء نيويورك صيتاً ، وأوضحها تميزاً . ورجع ذلك إلى قوة المقاومة في جنسه ، وما يحيط به من ملابس تعين على احتفاظه بجوهره . . . إن الأجناس الأخرى ليسرع إليها التحول والاندماج ، حتى لتكاد تنسى أصولها العريقة . أما الزنجي فإنه وإن استمسك بأمركيته واعتز بها واكتسب كثيراً من مظاهر الحياة فيها ، فهو ما برح يعد نفسه غريباً في أمريكا . . . غريباً في وطنه !

إنه ليشعر بأن جنسه هدف للضم والاضطهاد ؛ ولذلك يتحصن خلف أسوار حيه ، يكاد يحظر دخوله على غيره ، بل يكاد يقيم عليه باباً لا يستطيع اقتحامه أحد . . .

وإنه لمن عجيب المفارقات أن تجد جنساً لا يعرف له وطناً إلا أمريكا التي

يسكنها ، وهو مع ذلك يتأني الاندماج في هذا الوطن ، أو لعله لا يجد السبيل إلى هذا الاندماج . . .

تجول في هارلم ، فإذا بك في حي كسائر أحياء نيويورك في ظواهر العمران . . . إلا في السكان !

مستعمرة سوداء لا ترى فيها الأشباح البيض إلا لاما . . .
إن الأبيض يطرق هذا الحي وهو علم بأنه إذا توغل فلن يأمن على نفسه
الغوائل . فكأين من كلمة أثارَت شغباً وأججت حرباً ، وكأين من إيماءة أقامت
قتالا وأورثت وبالا . . .
إن هذه الوجوه السود لتقلب فيك نظر المستريب ، فإذا رجعت إليها البصر
تحفزت لك مستوفزة متممة . . .

إن قصة الأبيض والأسود قصة تتجلى فيها الطرافة ، وإن شئت قلت الغرابة
والشذوذ . . . إنها مأساة دامية ، بل وصمة في جبين الحضرة الأمريكي الناصع !
كادت قصة الأبيض والأسود تقوِّض بناء الجمهورية الفتية وتقصم عراها ،
فتفتكك دويلات ضئلا ضائعة الشوكة والسلطان ؛ ذلك لأن قديساً من البشر ،
مثالي الفكرة ، تعمر الانسانية قلبه ، أبى أن يكون في الجمهورية الجديدة أرقاء
من السود يباعون بيع السلع ، فمنحهم حق الانسان ، حق الحرية والمساواة . . .
ذلك هو لنكولن العظيم الذي كانت روحه فداء لفكرته ، فما كاد يرفع راية
العدالة ، ويقضي على الثورة حتى خر صريعاً بيد رجعية آثمة ، وراح شهيد مثله
الأعلى . . .

لقد وضعت الحرب الأهلية أوزارها ، وعفّت الحقب آثارها ، ولكن ثمة
حرب أخرى ما برحت مستمرة الأوار ، في الخفاء !

لقد محا القانون سحابة الرق والاستعباد ، ولكنها لما تزل عامرة بها
الصدور . . . الأسود والأبيض سيان أمام القانون ، وأمام فرص الحياة الرسمية
في كل منحى من مناحي الاجتماع ، ولكن نصوص القانون في واد ، وفهم القانون
والانطباع به في واد آخر بعيد . . . فإذا عرفت أن عقلية الأبيض لا تسبخ
بأية حال شخصية ذلك الأسود المنبوذ ، تسنى لك أن تعلم كيف يفهم الأبيض
ذلك القانون ، وإلى أي مدى يجري تنفيذه في المجتمع الأمريكي الذي نعدّه معقل
الديمقراطية وملأها الأمين !

ربما تحدث الأبيض إليك عن الأسود بروح لنكولن العظيم ، روح الإخاء والمساواة ، ولكنه حين يمارس شؤون الحياة ، ويلابس ذلك الأسود في هذه الشؤون ، فسرعان ما تتبدل الحال غير الحال ، فاذا الأبيض ينظر إلى الأسود نظرة الأحرار إلى العبيد ، ويعامله معاملة السيد للمسود !

لا ألفة بين الأبيض والأسود في أمريكا ؛ فينبها حاجز تكاثفت طبقاته وتحجرت على ترادف الأيام . ومنشأ ذلك أن الأبيض ما زال بواعيته الخفية ينظر بعين أجداده ، فيرى الأسود عبداً رقيقاً ، له أن يبيعه وأن يشتريه وأن يسخره فيما يرغب من الأعمال ، فكيف يراد الأبيض اليوم على أن يساويه أولئك العبيد الأرقاء ؟

ومن ناحية أخرى نرى الأسود قد استنار عقله ، واستبان له حقه في أن يعيش حراً على قدم المساواة بينه وبين سائر الناس . . . وإذا كان قد اتخذ أمريكا وطناً له فشأنه في ذلك شأن الأبيض سواء بسواء . . . وفوق ذلك فهو يرى بواعيته الخفية أن البيض القدماء قد استعبدوا أجداده ظلماً وعدواناً ، فهو يحفظ لأخلافهم البيض ثار الجدود . ومن ثم تشهد في الأسود المعاصر عنجهية وخيلاء ، وتلمح في عينه نظرة الثائر المحنق ، فيزيد ذلك من حفيظة الأبيض عليه ، ويوسع بينهما هوة الشقاق . . .

ومن أضحك المفارقات أن الديمقراطية الرحبة التي هي شعار الجمهورية الأمريكية قد أعانت على التفرقة بين الأبيض والأسود دون عمد . . . فهذه الديمقراطية تمنح الهيئات والأفراد حرية التصرف في الأنظمة والإجراءات واتخاذ الخطط التي تيسر سبل النجاح ، وكان من أثر ذلك أن عمدت طائفة كبيرة من المعاهد والمؤسسات ونحوها إلى إقصاء الأسود عن رحابها ، مستخدمة في ذلك حقها في أن تقبل من تشاء وتأبى من تشاء . . . فلم يجد الأسود بداً من أن ينشئ لنفسه معاهد ومؤسسات خاصة ، فاشتدت بذلك الفركة ، وتلظت البغضاء ، وتقطعت أسباب التواصل والاندماج . . .

ستظلين يا هارلم كما أنت ، لا يعنى عليك الزمن إلا إذا انقلب الأمريكيون البيض جميعاً أشباهاً للنكولن خلقوا من طينته ، وأُشربت قلوبهم فكرته ، وكانوا كئله قديسين ، نصب عيونهم مثله الأعلى في الإنسانية والأخاء !

ولكن أمن الخير للامة الأمريكية أن تكون على غرار لنكولن مثالية

قديسة ، فيندمج العنصران النقيضان ، وتتزوج العقليتان المختلفتان ؟
أم الخير كل الخير في أن يظل للأسود ميدانه وديناه ، وللابيض حضارته
يمضى بها طوع هواه ، ويطبّعها بعقليته ومنحاه ؟
مهما يكن من قول ، فإن في سريرة الغدجلاء ما تضطرب فيه الظنون ! . . .

ما كان لنا وقد ذرعنا شوارع نيويورك وتدنسنا إلى أحيائها إلا أن نخرج من
عزلة المدينة ، متخطين أسوارها في نزهات قاصية بين الضواحي والأرباض . . .
وإنك لتحسب نفسك في نزهة حول المدينة ، فإذا بك تعلم أنك قد اقتحمت
حدود ولاية أخرى ، وبدأت تحب مدائنها ، وتطرق عاصمتها . . .
تحاط نيويورك بضواحي طريفة ، سمّوها كما شئت ولايات أو مدائن أو مقاطعات ،
لها جميعاً طابع واحد ، فما أشبه بعضها ببعض : البالساد ، بيرماونتن ،
وست شستر ، لنج بيتش ، كوفي أيلند ، وما إليها . . .
دساكر ويقاع تتجلى فيها صفات الريف جمعاء ، ولكنه الريف في مظهر
مثالي شائق . . . إن هذه الدساكر لتعد قرى هنالك ، ولكن أية قرى هذه ؟
تلك وسائل الحضارة في هذه المدن الريفية مستكملة مستوفاة تحيلها حضراً له
مزايا الريف . . .

للناس في نيويورك عادة ألفوها ، هي أن يخرجوا إلى تلك البقاع في أيام
الآحاد والعطلات ، وإن بعضاً من الناس ليتخذونها مستقراً وسقماً ، يفزعون
إليها انتجاعاً للراحة ، ونجاء من الزحمة والضجيج . . .
وإن لأهل نيويورك نزعة قوية إلى طلب الراحة ، ينشدونها ويسعون إلى
تحقيقها ما وجدوا إليها الخلاص . . .
تري أكثر كلماتهم دوراناً على ألسنتهم هي كلمة « ريلاكسي » . . .
يتناقلونها في كل مناسبة ، فهي فردوسهم المفقود ، ونعيمهم الموعود . . . إنها
« التراخي » . . .

وحق للأمريكيين أن يطمحوا بهذه الرخاوة ، يهيمون بها حباً ، ويتحرقون
إليها شوقاً . ولكن هذا الفردوس عزيز النال على أولئك المساكين الذين
دارت بهم الآلة ، وضغطتهم الزحمة ، وجهدهم التكالب على الكسب
والاغتنام !

إنهم لا يخرجون من رَهَق إلا إلى رَهَق ، ولا يخلصون من مجهود إلا إلى مجهود . . .

إلى أين يقصدون ؟

ألى سفوح الجبال ، حيث تجول يد الفنان فى مجالى الطبيعة فتحيلها جنات بحق : حدائق وغابات ، جسور معلقة ، وهاد ونجاد ، جداول وبحيرات للسباحة والجذف ، ملاعب تحت الخمائل ، مقاصف بين الأيك والغصون ، إلى غير ذلك من محاسن تفرّ بها العيون ، وتتلج لها الصدور؟ . . .

ولكن كيف السبيل إلى الاستمتاع بهذه المجالى الفاتنات ؟

ليس ثمة من سبيل إلا أن ترهق نفسك وترحمها بين الكتل البشرية فى البواخر والقطارات والسيارات الحافلة ، فإذا استخلصت جسمك من بين الجموع فى آخر المرحلة ، ورأيت نفسك قاب قوسين أو أدنى من تلك الجنان الزاهية ألقيت شياطين الرحمة ، وأنظمة « الطواير » قد سبقتك هناك ، ووقفت لك بالرصد ، تعكر عليك الصفو ، وتسلبك أمك فى « الريلاكس » فتتشدد مع الشاعر العربى قوله :

المستجير بعمره عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

إن نشدان الراحة فى مظان الراحة هناك معضلة من جسام المعضلات ! ولذلك تجلت أمنية « التراخى » فى مظاهر شتى من الأدب الأمريكى والفن الأمريكى ، ولا سيما الفلم السينمائى . . .

تراهم يصورون حياة الطبيعة الفطرية تصويراً بالغ الروعة ، ويشيدون بمفان المواطن غير المتحضرة إشادة ظاهرة . وليس ولعهم بذلك التصوير وتلك للإشادة إلا إرواء لظما نفوسهم إلى الراحة والرخاوة . . .

ما أ كثر المتنزهات الخلوية ، وما أحفلها بالمتع المتنوعة تواقى كل امرئ بما تصبو إليه نفسه ! . . . وما أروع الطرق التى تصل بعض هذه المتنزهات ببعض ! . . . إنها طرق فسيحة معبدة ، أخلت مضاراً للسيارات تنتهى وحدها انتهاياً . وقد يتحول الطريق جسراً عظيماً يمتد أميالا طوالاً ، ثم يتقلب نقفاً هائلاً يتغلغل فى جوف الأرض متسللاً تحت أعماق الماء ، ثم تخرج منه تستقبلك الروج الخضر والغابات المشبكة وتلك المغانى الفاتنة تبدو فى فن بنائها كأنها لعب مكبرة أو نقوش ملونة . . .

أما الشواطئ الخاصة بالاستحمام ، فلكل بقعة منها نصيب ، فإن ضمت الطبيعة به خلقه لها خلقاً ، وأنشأه إنشاء !
ولعل أكبر ما يميز تلك الشواطئ حفولها بتلك الملاعب التي نسميها :
« لونا بارك » . . .
ما أنس لا أنس لمعب كوني أيلند . . . رقعة واسعة تحوى كل عجيب غريب من الألعاب التي تأخذ بمجامع الألباب . . .
وإنها لظاهرة تسترعى النظر ، تلك الرغبة التي تمتلئ بها نفوس الأمريكيين في ارتياد أما كن التسلية الطفولية العامرة بالصخب والضجة والمخاطر . . .
ربما كانت علاجاً يفرعون إليه شفاء لأعصابهم المهوكة ، على نحو ما كان يشفى به نفسه أبو نواس إذ يقول :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء وداوئى بالتى كانت هى الداء

إنهم يعبون من تلك الخمر الكاوية للأعصاب ، ليسوا ما نهكهم من جهد وشقة . . .
إنهم ليرامون فى ذلك الصخب والضجيج ، يتركون أنفسهم على سجيته منطلقة ترح وتلعب . . .

هى رغبة فى التحرر من الأغلال : أغلال العمل الدائب ، وأغلال النظم الصارمة !

فى هذه الملاعب يحاولون أن يحطموا هذه الأغلال ، فتجد الرجل الناضج قد اهتز طرباً وهو يعتلى صهوة حصان من خشب يسابق به الريح ، أو ضج سرحاً وهو يترنح على مقعده فى ذلك القطار الأهوج الذى لا يفتأ فى صعود وهبوط ، أو انبعث ضاحكاً والرحى السحرية تدور به دورتها الحقاء ، ثم تلفظه لفظ التواء ؛ فلا تراه قد ترك لعبة إلا مقبلاً على أخرى طلباً للمزيد من الضحك والمرح !
فى تلك الملاعب الثائرة تتجلى المخاطر فى صورة واضحة ، ولكنها مخاطر مأسونة العقى . . . وإن الانسان ليولع بها إرضاء لزعزعة أصيلة فى أغوار نفسه .
هذه الحضارة على وجه عام قد أمست عيشه ، وسهدت طريقه ، فأصبح يحيا حياة أمن لا تكلفه جهداً ذاتياً فى الغامرة ومجادة المخاوف ، ولا تتطلب منه أية جرأة أو جسارة ، لا كما كان يعيش أبوه الأول ، يصارع ويصاول ، تعتاقه فى

كل طريق عقبة ، ويخشى في كل خطوة أن يقع في شرك ، فإذا ذلل العقبات ، وتخطى الأشرار ، أحس قوة الشخصية وكبرياء الفتوة وزهو الغلب . . . أما هذا الانسان الحضري فانه قد أُحيط بما يؤسسه حتى مل الأمن الشائع حوله ، فهو تواق إلى أن يستعيد حياة الفرع وبجابه الأهوال ، ولو ساعة في مجال تتناثر فيه ألعاب الصبيان !

ومن ثم يرمى بنفسه في تلك المخاطر المصنوعة ، ويخرج منها سالماً يوهم كبرياءه أنه الفارس المغوار ، والبطل المقدم . . . طال بنا التجوال يوماً في هذه الشواطئ العامرة بالملاعب والمساح والمقاصف ، حتى أذنت شمس النهار بالغيب ، فإذا بي أسمع صوتاً يقول : — هلاً راقتموني إلى مغنى فكتور تقضى فيه هزيعاً من الليل ؟ فالتفت صوب الصوت ، فواجهني صديق كريم ، سمح المحيا ، طلق الأسارير ، فقلت له على الفور :

— وما هو مغنى فكتور ؟ —
— مثابة في إحدى الضواحي القصوى ، إن شئت سميتها مطما ، وإن شئت سميتها منتدى تستمتع فيه بجلسة صافية . . . فقلت له :

— ليك !
وأقلنا سيارته الرشيقة ، فانسابت في طريق من تلك الطرق الفساح ، تمر بنا المروج والغابات والضياح ، يتلو بعضها بعضاً ، في جو رخى الأنسام ، حتى شارفنا مغنى فكتور . . . حديقة طيبة ، وبركة أنيقة ، يتوسطهما مبنى جميل ، كل ما فيه يشعرك بالألقة ومظاهر الحياة العائلية . . .

لست في مطعم أو مشرب ، وإنما أنت في بيت غطريف سرى من أمراء الطلاب له في الحياة ذوق فنى مصفى ، تحير هذه البقعة النائية ليحيا مع ضيوفه ورواد مغناه في دعة وطمأنينة وصفاء ، يقدم لهم أفخر الطعام وأطيب الشراب في تأنق وسخاء . . .

وتوخينا معزلاً هادئاً بجوار الشرفة ، وأضينا فترة هائلة . . . لا موسيقى ولا رقص ، لا حركة ولا جلبة ، لا شئ مما تحفل به مقاصف الليل !

الأبيض والأسود . . . وقصص اخرى !

إن انتزاح هذه المثابة عن قلب نيويورك وقيامها على أطراف الأرياض وخلوها من المغريات الشائعة ، جعلها مهوى أفئدة أولئك الذين يبتغون تدوق المتع الغالية الرفيعة فى سكونة وهدوء . . .
وتلفتت حولى أقول :

— أين رب البيت السيد فكتور ؟

فعلا صوت ضخم رددت أصداؤه أبهاء المغنى ، وقد شاعت فيه نغمة حفاوة وترحيب ، تصحبها ضحكة رنانة لا يحيد إطلاقها إلا من كان خالى البال . . .
فملت على صديقى أقول :

— قسا إنه السيد فكتور !

فاعتاض الصديق عن الجواب بالابتسام . . .
وهرع بعض قصاد المغنى إلى مصدر الصوت فى بشاشة وإيناس ، وأهاب بنا الصديق أن نهض كما نهضوا ، فتبعناهم ، فاذا بنا أمام قفص لطيف تقف على إحدى دعائمه ببغاء رشيقة تصوب فىنا النظر وتصدده بعينين حادتين . . .
فهمست فى أذن صديقى :

— من يكون هذا السيد الظريف ؟

— إنه الخل الوئى والصديق الودود لرب الدار . . .

— حقاً إنه خير من يؤدى حق الضيافة !

ولبنا حيناً يحينا هذا السيد ونحييه ، ويفاكهنا ونفاكهه ، وقد توثق بيننا .
الود ، واتصلت أسباب الألفة . . .

ولكن القصاد تكاثروا حول القفص ، وتكاثفت الحلقة ، فاذا بهذا السيد الظريف ينقلب عفريتاً من الجن يصخب ويشور ، ويسلقنا بلسان سليط ، فتراجعنا عنه مقهورين !

لقد استجبنا لنداء هذا الزعيم الحبيس ، فلم ندع صيخته تذهب مع الريح ، ولكنه ما كاد يحس عظمته تتجلى ، ويرى مكانته تتسامى ، حتى أشر وبطر ، وحسب نفسه زعيماً بحق ، وانبرى يشور على من استجابوا له ! . . .
ذلك صنيع حيوان .

أترأه محاكياً يفصح عن طبيعة الإنسان ؟

وشرع صديقى يروى لى قصة السيد فكتور . . .

إنه طلياني تأمرك ، طلياني فنان في روحه وذوقه ، احتل هذا المغنى بحديثه وبركته ، فأقام هو في الطبقة العليا ، وجعل الطبقة الدنيا مطعماً ومثابة للوجهاء المترفين . . . وإنه ليتفنن في كل ما يقدمه من مأكل ومشرب ، وما تقع عليه العين من أثاث ومتاع . . .

ولقد استغل الحديقة ، فاتخذ منها حظيرة للدواجن ، ومزرعة للخضر والفاكهة ؛ ولذلك يقدم لك من ثمر المزرعة ما هو يانع جنى ، ومن نتائج الحظيرة ما هو منتقى شهي . . .

كل ما عندك أيها السيد فكتور — أو على الأصح أيها السنيور فيتوريو — طريف شائق حتى هذه البغواء المتمردة الشغوب !

لقد تفتت عبقريتك عن عمل في يدل على أن للطلينان القِدْح المَعْلَى في حب الجمال !

حقاً لقد ظلمكم زعيمكم الراحل موسوليني أيها الطليان ، إذ حاول أن يخلق منكم جبهة حرب وضرب ، وكر وفر ، وما أنتم إلا أمة فن جميل ، وذوق رفيع . . .

وهل تقل عظمة الفن والجمال عن عظمة القتال والصلال ؟

محمود نجور